

المضامين التربوية الروحية للتصوف الإسلامي قراءة تحليلية للدلالات الاصطلاحية للتصوف الإسلامي

قول معمر

جامعة الشهيد حمّة لخضر الوادي

مقدمة:

تعتبر تزكية الإنسان من أهم المقاصد التربوية في الإسلام، فالسعي لإصلاح الجزء متضمن للكلّ ومتعدّد إليه، وقد عرفت الحضارة الإسلامية علما جعل هذا المقصد هدفه وغايته وموضوعه وهو علم التصوف الإسلامي الذي ركّز أساطينه وأربابه على مشروع التربية الروحية بطريق التحلية والتخلية، التحلية بالفضائل والتخلية من الرذائل عن طريق مداواة النفوس وترويضها وإصلاح القلوب وتطهيرها، وهي عملية يمكن من خلالها العودة بالإنسان إلى أصله وفطرته وتحقيق المصالحة والسلم مع ذاته ونفسه

بحملها على مقتضى الآداب والفضائل والقيم والنأي بها عن الرذائل، ويمكن أن نلمس هذه الأهداف والغايات في تلك الحدود والتعريف التي وضعها علماء التصوف لحدّه وبيان موضوعه، رغم كثرتها التي عبّر عنها الشيخ زروق الفاسي البرنسي (899هـ) في كتابه قواعد التصوف في القاعدة 02 قائلا: «وقد حُدّ التصوف ورسم وفسّر بوجوه تبلغ الألفين مرجعها كلّها لصدق التّوجّه إلى الله تعالى، وإنّما هي وجوه فيه والله أعلم».

وتحديد العلاقة بين التربية الروحية والتصوف يمكن أن يُستشفّ من خلال هذه التعاريف التي وضعها

وعى ضوء هذا طرح التساؤلات التالية، ما مفهوم التصوف الإسلامي؟ وما هي مضامينه الروحية والتربوية؟ وهل يُمكن أن تساهم هذه المضامين في إعادة تشكيل الصورة الصحيحة عن التصوف الإسلامي؟ وما مدى مساهمته في تحقيق السلم الداخلي والخارجي (فردا ومُجتمعاً).

خطة العمل:

- 1- الإنسان وأبعاده المختلفة
- 2 -أصالة التصوف الإسلامي ومنزلته في الإسلام
- 3 -مفهوم التصوف الإسلامي ومضامينه التربوية والروحية
- 4 -التصوّف الإسلامي من سلام الباطن إلى سلامة العوالم الخارجية -قراءة في الثمرات-

- خاتمة

القوم وبيان مضامينها ودلالاتها، فحدّد الشيء وحقيقته منبئة بموضوعه الذي لأجله وُضع، واستنطاق هذه التعاريف وتحليلها استماع رؤية موضوعية ومنهجية من شأنها أن تؤكد على الأبعاد التربوية والروحية للتصوف الإسلامي وتأكيد لأصالته واستمداده من الوحي الشريف، ومرافعة عنه في الوقت نفسه ضدّ بعض الرؤى التي رسمت عنه صورة نمطية ارتبطت بالرسوم والأشكال والطقوس، فلا سبيل لإبراز أصالته وسموّ أهدافه وغايته إلا من خلال الوقوف على أصل وضعه وحدّه، وهو ما عبّر عنه الشيخ زروق الفاسي بقوله في القاعدة 05 من كتابه: «إسناد الشّيء لأصل والقيام فيه بدليله الخاصّ به يدفع قول المنكّر بحقيقته

[لأنّ ظُهور الحقّ في الحقيقة يمنع من معارضتها]».

ولتحليل أنفسنا لا بد من الاستعانة
بعلوم مختلفة¹.

تتجلى هذه الحقيقة الكيانية
للإنسان في تلك الصورة التي رسمها
القرآن الكريم عنه وحديثه المستفيض
عن كل ما يتعلق به، بل كان أحد المحاور
الرئيسية في الخطاب القرآني، ويمكن أن
نلمس هذه الأبعاد المختلفة من خلال
تلك الرحلة التي رسمها القرآن الكريم
للإنسان وقصة خلقه وامتزاج الطين
بالروح، بل يؤسس القرآن الكريم
لماهية الإنسان قبل وجوده من خلال
آية الميثاق والعهد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ
أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ
ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا
أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ
هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف / 172،
أما ثنائية الروح والجسد فأشارت
إليها آيات كثيرة منها ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

1- الإنسان وأبعاده المختلفة في التصور الإسلامي:

بالوقوف على المنتج المعرفي الإنساني
في مختلف الميادين المعرفية تتجلى
مضامين خطاباته المختلفة، إذ كان
هذا المنتج إجابة عن تلك التساؤلات
التي شغلت فكر الإنسان وحاول
من خلالها إشباع حاجاته المختلفة
الروحية والبيولوجية والنفسية
والعقلية وحتى مدارك الخيال، فنشأ
على إثر هذه الرؤى علوم مختلفة كعلم
النفوس والتصوف والطب والفلسفة
والفنّ والرسم والموسيقى، وهذا
التعدد والتنوع تأكيد على الجوانب
المختلفة للإنسان، وهو ما أشار إليه
صاحب كتاب الإنسان ذلك المجهول
حين اعتبر الإنسان كلاً لا يتجزأ وفي
غاية التعقيد مما يجعلنا عاجزين
عن إيجاد طريقة لفهمه في مجموعه
وأجزائه وعلاقاته مع العالم الخارجي

لِّلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ
صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ إِذَا سَوَّيْتَهُ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا
لَهُ سَاجِدِينَ ﴿الحجر/ 28 - 29﴾

وجاء في تفسيرها: " عدلت خلقتة وهيأتها لنفخ الروح فيها، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي حين جرى آثاره في تجاويف أعضائه فحي، وأصل النفخ: إجراء الروح في تجويف جسد آخر. ولما كان الروح يتعلق أولاً بالبخار اللطيف المنبعث من القلب، وتفيض عليه القوة الحيوانية فيسري في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن، جعل تعلقه بالبدن نفخاً" ².

على ضوء هذه الثنائية في خلق الإنسان تفرعت مختلف القوى الأخرى فمنها ما لاحق بعالمه الترابي الأرضي الطيني وهي حاجاته البيولوجية ووظائفه الفيزيولوجية، وهي استعدادات تؤهله للاتصال بعالمه

الخارجي الحسي عن طريق حواسه، ومنها ما يلحق بعالمه الروحاني النوراني وهي تلك اللطيفة القلبية المودعة في القلب الجسماني والتي عبر عنها النبي بالمضغة في قوله «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» ³، والنفس الإنسانية مجموع هاته القوى، وجنودها في حراب وقتال وشجار فتارة تنزع إلى جانب العقول فتتلقى المعقولات وتثبت على الطاعات وتارة تستولي عليها القوى فتتهبط إلى حضيض منازل الهائم فهذه نفس لوامة وهذه النفس هي حالة أكثر الخلق وتارة ترتفع إلى أفق الملائكة فتتحلى بالعلوم والفضائل فتغدو ملكا جسمانيا ومن اتضع حتى صار في حضيض الهائم لم تكن مشاركته للإنسان إلا بالصورة التخطيطية ⁴، وعلى هذا الأساس فالرغبات والحاجات

الرومي أن اشتغال الإنسان بالصور والماديات يجعل منه طفلاً غير بالغ حتى ولو كان شيخاً ذا مئة سنة، وعليه أن يُدرك بأنه يحمل بداخله جوهرًا ويُمثل لذلك بالغزال والمسك، فالسعيد من وصل إلى المسك وغداً مسكاً⁶.

وموضوع الإنسان عند الشيخ الأكبر ابن عربي شغل حيّزاً كبيراً من فكره وتراثه، فيرسم لنا برؤيته العرفانية العميقة صورة سامية للإنسان، ففي كتابه إنشاء الدوائر يقول عن هذه المكانة: «... فإذا نفخ في الإنسان روح القدس التحق بالوجود المطلق التحاقاً معنويًا مقدساً وهو حظه من الألوهية⁷ فلهذا تقرر عندنا أن الإنسان نسختان، نسخة ظاهرة ونسخة باطنة فالنسخة الظاهرة مضاهية للعالم بأسره فيما قدرنا من الأقسام والنسخة الباطنة مضاهية للحضرة الإلهية، فالإنسان هو الكل

تختلف باختلاف قوة حضور هذه القوى، لذا يرسم لنا أبو حامد الغزالي صورة لهذا النزاع الداخلي في كتابه «معارج القدس»، فيرى أن الإنسان من حيث غذاؤه وتناسله فنبات، ومن حيث إحساسه وحركته فحيوان، ومن حيث صورته وقامته فصورة منقوشة على حائط. وإنما خاصته التي بها تميز عقله، المدرك لحقائق الأشياء. فمن استعمل قواه بغرض العلم والعمل، فقد تشبه بالملائكة، ومن صرف همته إلى طلب اللذات والشهوات فقد نزل إلى أفق الهائم⁵.

ونجد هذه الصورة نفسها في تراث مولانا جلال الدين الرومي إذ يرى أن الدنيا نصيب الجزء الحيواني لآدم، فالجسد غذاؤه الشهوات والآمال أما الجوهر فغذاؤه العلم والحكمة ورؤية الحق، فحيوانيته تفرّ من الحق، أما إنسانيته فتفرّ من الدنيا، لذا يعتبر

وتطهيرها انتصار للمطالب الروحية العالية وتحقيق لغاية العبودية والاستخلاف واستحقاق للتكريم الإلهي وتجسيد لإنسانية الإنسان والعودة به إلى أصل الفطرة التي خلقه الله عليها، وهذه خاصية ينفرد بها الإنسان عن غيره من الموجودات: "... إن النفس الإنسانية تمتاز عن سائر النفوس والموجودات الأخرى بتلك القوى المدهشة العجيبة. . . ومن خصائص هذه القوة العاقلة، أنها القوة التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ويُشرق منها ضوء كبريائه، فتهمي أصحابها بذلك لممارسة العبودية لخالقها العظيم جلّ جلاله، فيصبح الإنسان نتيجة لذلك أول مظهر لألوهية الله عز وجل، وإذا كان الأمر كذلك، فإن من لوازمه الواضحة أن تكون النفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة في العالم... " ¹⁰

على الإطلاق والحقيقة، إذ هو القابل لجميع الموجودات... ⁸ ومما يمكن أن نستدل به أيضا على عوالم الإنسان المختلفة حديث القرآن الكريم عن النفس وأمراضها وعللها وحاجاتها، مع الدعوة إلى تزكيتها وتطهيرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس/09 - 10، وجاء في تفسيرها: "... فاز بكل مطلوب، ونجا من كل مكروه مَنْ طَهَّرَهَا وَأَصْلَحَهَا وجعلها زكيةً بالإيمان والطاعة، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾؛ أغواها، قال عكرمة: " أفلحت نفس زكَّاهَا اللهُ، وخابت نفس أغواها اللهُ " ويجوز أن تكون التَّدسية والتطهير فعل العبد، والتَّدسية الدَّس والإخفاء، أي: خسر مَنْ نقصها وأخفاها بالفجور... " ⁹ وحديثه عن أمراض القلوب من كبر وحسد، لذا كان الاشتغال بإصلاحها

2 - أصالة التصوف الإسلامي ومنزله في الإسلام:

أ/ أصالته: يُعتبر التصوف الإسلامي من علوم الدين، التي جعلت التزكية هدفاً والنفس موضوعاً والطريقة وسيلة وهو ما بينه أعلام التصوف، فقال الإمام الطوسي في اللمع في جوابه عن سؤال وجه إليه مفاده بيان حقيقة علم التصوف ومذهب الصوفية، وبين أن العلوم المتداولة بين العلماء لا تخرج عن ثلاث: آيات من كتاب الله عز وجل، أو خبر عن رسول الله S، أو حكمة مُستنبطة ظهرت على قلب وليٍّ من أولياء الله¹².

وهو ما ذكره ابن خلدون في سياق حديثه عن العلوم المختلفة التي نشأت في الحضارة الإسلامية، وعدَّ التصوف منها فقال: «هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملة...»¹³.

إن صورة الإنسان وفق التصور الإسلامي صورة معتدلة تجنح عن كل تفريط أو إفراط أو غلو، ورؤية تجمع له بين مطالبه الجسدية البيولوجية وعالمه المادي، وفي الوقت نفسه تدعوه لأن يكون وفق المطلب الإلهي بالتحقق بالكمالات والفضائل تحقيقاً للسعادة في الدارين ﴿وَاتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ القصص/77، فالروح هي الجوهر الإنساني وهي كالمرآة عاكسة لكل الكمالات، وفي هذا يقول الشيخ الرئيس: "ترتسم فيها المعقولات من الفيض الإلهي كما ترتسم الأشباح في المرايا الصقيلة إذا لم يفسد صقالها بطبع ولم تُعرض بجهة صقالها عن الجانب الأعلى مشغلة بما تحتمل من الشهوة والغضب والحس والتخيّل، فإذا أعرضت عن هذه وتوجّهت تلقاء عالم الأمر لحظت الملكوت الأعلى واتصلت باللذة العليا..."¹¹.

إنَّ جميعَ حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسةٌ من نورِ مشكاةِ النُّبوةِ وليس وراءِ نورِ النُّبوةِ على وجه الأرض نورٌ يُستضاءُ به»¹⁵.

إنَّ الحديث عن التَّصَوُّفِ تفعيلٌ لما جاء به القرآن الكريم والسُّنة النبوية، ونقصٌ بذلك الأحكام التي تضمَّنْها الإسلامُ جملةً، وهي تندرجُ تحت ثلاثةِ أقسامٍ رئيسيةٍ، وهي العقائد والفروع من عباداتٍ ومعاملاتٍ وأخلاقٍ¹⁶.

وهذه الثلاثية هي المعبر عنها بالإسلام والإيمان والإحسان¹⁷، وعلى ضوء هذه الأقسام نشأت علومٌ حاول أصحابها تقعيد قواعدها وبيان أصولها وفروعها استنباطاً من الوحي الشريف، فأسس علم العقائد المتعلِّق بالأصول ببيان أصول الاعتقاد، وهو المعبر عنه بأركان الإيمان الستة، وأسس علم الفقه المتضمِّن لأبواب العبادات من صلاةٍ وزكاةٍ وغيرها، ومعاملاتٍ

لذا انفرد التَّصَوُّفُ بخصوصيةٍ اصطلاحاته، وخصوصيةٍ التجربة الصَّوفية من جهةٍ أخرى القائمة على الذَّوقِ والمكابدة، فلا يُمكن إدراك حقيقة التجربة الصَّوفية إلا بتجربةٍ مماثلةٍ جَوَانِيَّةٍ، وهو ما صعبُ البحث في التجربة الصَّوفية، وهو ما صرَّح به الغزالي في كتابه المُنفذ من الضلال، فبعدَ قراءته ما ألفه أساطينُ التَّصَوُّفِ الإسلامي توصلَ إلى نتيجةٍ مفادها أنَّه لا يمكنُ إدراكه - التَّصَوُّف - إلا بالتَّعلُّم والذَّوق والحال، فأدركَ بعد تجربةٍ أُنهم أرباب أحوالٍ لا أرباب أقوال، وعَلِمَ أنَّ أخلاقهم أذكى الأخلاق وسيرتهم أحسن السير، وقد سار الغزالي في طريقهم وأخذَ نفسه بالرياضة والمجاهدة مُدَّةً طويلةً حتَّى انكشفت له¹⁴ في خلواته أمورٌ لا يمكنُ حصرها، وانتهى به هذا إلى اليقين، وأدرك أنَّ المعرفة الحق هي ما كان عن طريق الكشف، ويعلِّقُ الغزالي على طريقة القوم بقوله: «...»

وأساطين التّصوّف الإسلامي إلى مراعاة أحكام الشريعة الإسلامية في الجملة سواء ما تعلّق منها بالأوامر من أقوال وأفعال ظاهرة كالصّوم والصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو ما تعلّق بالنفس والقلب كالإخلاص والتواضع والحب في الله والبغض فيه، وكذا النواهي المتعلقة بظاهر الأقوال والأفعال، كالنهي عن القتل بغير حقّ والسّرقه والزنى والغيبة والنميمة، وإلى ما يتعلّق بأعماق النفس أو القلب كالنهي عن الكبر والعجب والرياء والحقّد والضغائن والتعلّق بزخارف الدّنيا وأهواء النفوس¹⁹.

ب/ أهميته:

يكتسي التّصوّف أهميته بالنظر إلى موضوعه الذي من أجله وضع له، وهو مداواة النفوس بتحليلتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل، وحملها على مكارم الأخلاق وأمّهات الفضائل،

كبيع زواج وميراث، وأسس علم ثالث اهتم أساطينه بمبحث الأخلاق عن طريق مداواة النفوس بتحليلتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل، وهو علم التّصوّف الذي كان موضوعه الرئيس إصلاح النفس الإنسانية، وهو المعبر عنه بالإحسان في حديث النبي S، لذا دفع الشيخ زروق الفاسي في قواعده اعتراض من يرى أنّ التّصوّف دخيل لا أصل له من كتاب وسنة في القاعدة 05 من كتابه: "إسناد الشّيء لأصله والقيام فيه بدليله الخاص به يدفع قول المنكر بحقيقته [لأنّ ظهور الحق في الحقيقة يمنع من معارضتها]، فأصل التّصوّف مقام الإحسان الذي فسّره رسول الله S بأنّ تعبد الله كأنك تراه... كما دار الفقه على مقام الإسلام، والأصول على مقام الإيمان، فالتّصوّف أحد أجزاء الدين"¹⁸.

لذا دعا علماء الأمّة من الفقهاء

لذا كانت الأخلاق قسما هاما من أقسام الرسالة التي تضمنت التوحيد والأصول (العقائد) والعبادات والمعاملات، والأخلاق داخلة في هذه الأقسام الثلاث، وهو ما يؤكد حديث جبريل المشهور عن الإيمان والإسلام والإحسان، وينقل الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث قولاً للقاضي عياض قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ- في شرح عبارة «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»:

«وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى شَرْحِ جَمِيعِ وَظَائِفِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مِنْ عُقُودِ الْإِيمَانِ وَأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ وَإِخْلَاصِ السَّرَائِرِ وَالتَّحَقُّظِ مِنْ آفَاتِ الْأَعْمَالِ حَتَّى إِنَّ عُلُومَ الشَّرِيعَةِ كُلَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ وَمَتَشَعِبَةٌ مِنْهُ»²².

والقرآن الكريم متضمن للدعوة إلى مكارم الأخلاق والفضائل، بل من

وقد بينا في مفهوم التصوّف انصرافه إلى الأخلاق، وهي رسالة الإسلام ونبي الإسلام S ، فقد بيّن الله أن المقصد من نبوته ورسالته هو البعد الأخلاقي والقيمي، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة 02/ وجاء في تفسيرها: " وَابْتَدِئَ

بِالتَّلَاوَةِ لِأَنَّ أَوَّلَ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ بِإِبْلَاجِ الْوَحْيِ، وَثَنَّى بِالتَّرْكِيَةِ لِأَنَّ ابْتِدَاءَ الدَّعْوَةِ بِالتَّطْهِيرِ مِنَ الرَّجْسِ الْمُعْنَوِيِّ وَهُوَ الشِّرْكَ، وَمَا يَعلِقُ بِهِ مِنْ مَسَاوِي الْأَعْمَالِ وَالطَّبَاعِ " ²⁰، ولا شك أن التطهير من مساوئ الأعمال والطباع تغيير للأخلاق الذميمة إلى أخلاق حسنة، وفي الحديث الشريف ما يؤكد على هذا المعنى في قوله S "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ" ²¹.

الفرد والمجتمع والدولة، ولن تقوم
تربية راشدة إلا إذا غرسنا معنى
الإحسان في النفوس على أنه من محابِّ
الله تبارك وتعالى»²⁴.

والجانب العبادي في الإسلامي من
صلاة وزكاة وصوم وحج إنما المقصد
من تشريعها كونها مدارج للكمال
المنشود وروافد للتطهر²⁵، ويعلق
الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله -
على حديث جبريل ويبرز جامعته
وشموليته التي تضمنت الأسس
العظيمة التي تحقق السعادة للإنسان
باعتباره مستخلفا ومكلفا فيقول:
« والحديث الذي بين أيدينا يشرح
الحقيقة الصحيحة للدين، والإيمان
إذا صحَّ لا بد أن ينتج العمل، والعمل
إذا صحَّ لا بد أن يرتكز على الإيمان،
والإحسان إذا صحَّ لا ينشأ إلا من
إيمان راسخ وعمل كامل... والإسلام لا
يصح إلا بالروح الكامنة فيه، والوقود

مقاصده تطهير الإنسان وتزكياته، لذا
امتدح الله من يشتغل بإصلاح عيوب
نفسه وتطهيرها، قال تعالى: ﴿قَدْ
أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ
دَسَّاهَا﴾ الشمس/09 - 10، وجاء في
تفسيرها: أي: فاز بكل مطلوب، ونجا
من كل مكروه من طهرها وأصلحها
وجعلها زكيةً بالإيمان والطاعة، ﴿وَقَدْ
خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾؛ أغواها، قال
عكرمة: " أفلحت نفس زكَّاه الله،
وخابت نفس أغواها الله " ويجوز أن
تكون التدسية والتطهير فعل العبد.
والتدسية: النفس والإخفاء، أي: خسر
من نقصها وأخفاها بالفجور"²³.

ولأهمية مقام الإحسان والتزكية
في الإسلام جعله الله أحد المحاور التي
يدور عليها موضوع القرآن الكريم،
وهو شامل لكل المستويات فردا وأمة
وجماعة ودولة، وفي هذا يقول محمد
الغزالي: «وهكذا نرى الإحسان يشمل

الفصول في الشؤون الإلهية، وعجزوا أن يرفعوا الناس إلى حضرة الله بأسلوب علمي محكم²⁷

وما ذكره الشيخ محمد الغزالي صحيح، إلا أن ما تجدر الإشارة إليه أن الفصل عند سلفنا بين ما هو كلامي وفقهي وما هوروي أخلاقي كان لظروف العصر والسياق الثقافي والتاريخي الذي ألجأ سلف الأمة إلى تلك المباحث، لكن هذا لا يرفع المسألة ولا النقد من باب جلد الذات.

يكتسي التصوف الإسلامي أهميته من حيث كونه موجّه لإصلاح الباطن كما جُعِلت الشريعة من حيث العبادات لإصلاح الظاهر عن طريق الأحكام الشرعية من مأمورات ومنهيات، وعبادة الظاهر شريعة وعبادة الباطن شرع أيضاً ولا فصل بينهما، بل من الخطورة الاعتقاد بهذا الفصل، يقول الشيخ محمد الغزالي

المحرّك له أي الإيمان الحقّ، فإذا استبطن هذا اليقين الدافع فأمامه مثله الأعلى في إحكام الصلة بالله، والشعور برقابته الدائمة، وشهوده الجليل وهو مقام الإحسان»²⁶.

إن إحياء النفوس البشرية وتطهيرها وهداية الحيارى من الناس في واقعنا اليوم مع تحديات العولمة وما صاحبها من خواء روحي وقيمي وأخلاقي وتصارع على الشهوات والماديات لا يمكن أن يقوم بهذا كله إلا الروحانية المنبثقة من جوهر التصوف الإسلامي، لذا يرى الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- أن التصوف باعتباره جانب من جوانب الثقافة الإسلامية الرحبة لم يلق العناية المستحقة من جمهرة المتكلمين والفقهاء، والمتصوفة - رغم بعض شطحاتهم هم من أثاروا هذا المبحث الجوّاني، فالفقهاء كتبوا المجلدات في غسل الأطراف، والمتكلمون عقدوا

– رحمه الله – في هذا المعنى: « إن الله شرع الدين موضوعا وشكلا، معنى ولفظا، يقظة نفسية، وحركة بدنية، فمن أخذ الظاهر من هذا كله وترك الباطن، فهو يعبث بالدين ويتخذة لعبا ولهوا»²⁸.

وهذا الأمر هو ما يُطلق عليه بثنائية الشريعة والحقيقة، لذا نجد سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام يؤكّد على هذه الثنائية، مبينا دور التصوف في إصلاح القلوب والبواطن وتزيينها بما يقربها من الكمال فيقول: « ومعرفة ذلك هي الملقّبة بعلم الحقيقة، وليست الحقيقة خارجة عن الشريعة، بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال والعزوم والنيات، وغير ذلك مما ذكرناه من أعمال القلوب، فمعرفة أحكام الظواهر معرفة لجلّ الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدقّ الشريعة...»²⁹.

ولعلّ ما غيّب صورة التصوف الحقّة ورسم عنه صورة سيئة كون أغلب الناس جعلوه رسوما وأشكالا وخرقة، وهو في حقيقة أمره خرقة وألم دائم ويقظة روحية لمن أنصف، ومما استوقفني في هذا المقام تعليق الأستاذ زكي مبارك – رحمه الله -على الفهم الخاطئ للتصوف الإسلامي، فقال: « وكيف يقصر التصوف على أصحاب الرسوم والأشكال وهو من رسوم القلوب وأشكال الأرواح، إن التصوف خليق بأن يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية، والأساس أن يكمل الصدق ويسود الإخلاص. . . فيكون في الحب ويكون في الولاء ويكون في السياسة...»³⁰.

ويذكر الإمام أبو الحسن الندوي في كتابه «ربانية لا رهبانية» دور التصوف الإسلامي في التزكية وإصلاح القلوب ويرى أن استبعاد التصوف

كوربان فيرى أن التصوف الإسلامي ظاهرة روحية لا تقدّر واستثمار لروحانية النبي S وجهد لعيش أنماط الوحي القرآني عيشا شخصيا عن طريق الاستبطان، فالمعراج النبوي هو النموذج الذي حاول المتصوفة بلوغه والتصوف اعتراض على كل نزعة حاولت حصر الإسلام في ظاهر النص³²، ولا ننسى أن نذكر أيضا انجذاب كبار المستشرقين إلى التصوف الإسلامي وإنصافهم للإسلام ودفاعهم عنه انطلاقا من نافذة التصوف الإسلامي، ومن هؤلاء نذكر الفرنسية التي أسلمت إيفا ديفيترايميروفيتش التي وهبت نفسها لقراءة مولانا جلال الدين الرومي، وكذا المستشرقة الألمانية أنيماري شيمل وأعمالها عن الرومي أيضا، ومن أبرزهم أيضا الشيخ عبد الواحد يحيى - رحمه الله - ولعلّ الله يكتب لنا عودة إلى هؤلاء الأعلام وإبراز جهودهم والتعريف

كمشروع أخلاقي كان بسبب التسمية «تصوف»، لذا صاغ إشكالية مفادها جناية المصطلحات على الحقائق والغايات، لذا يرى أن الأجدر أن يُسمّى التزكية أو الإحسان أو فقه الباطن³¹، وهو رأي يحسم الخلاف بين أهله، لكنه ظلم معرفي لأهله من أصحاب التصوف، إذ لا مُشاحة في الاصطلاح، فالتصوف علم من العلوم التي نشأت في الحضارة الإسلامية، له أصوله وقواعده ومصطلحاته عند أهله، ولا يُمكننا أن نغيّر تسمية علم من العلوم بدعوى أنه لم يُرض طائفة معيّنة، بل إنّي أرى أن واجب تجديد التصوف الإسلامي واستحضاره للساحة المعرفية والتربوية يكون بالدفاع عن اسمه وشرح قواعده وأصوله.

ونذكر في ختام هذا المبحث شهادة لأحد كبار الباحثين من المستشرقين في مكانة التصوف الإسلامي وهو هنري

عن أصالة الفكر الإسلامي كالشيخ
مصطفى عبد الرزاق وعبد الحليم
محمود وعلي سامي النشار.

أ/ لغة: تضاربت الأقوال قديما
وحديثا في أصل الكلمة - الصوفي
- وأبرز الاشتقاقات التي ذكرت في
هذا الباب هي كالآتي: أنه مشتق من
الصوف تارة ومن الصفاء، ومن
الصف الأول، ومن أهل الصفة وإلى
رجل اسمه صوفة، وإلى صوفة القفا،
وإلى الصوفانة (نبته بالصحراء)، وإلى
الكلمة اليونانية سوفيا³⁴.

وقد تضمنت المصادر الأولى
للتصوف هذه الأقوال وتمت مناقشتها
وردّها، من ذلك ما أورد الإمام
القشيري(ت 465هـ) في الرسالة،
حيث ذهب إلى أن هذه الاشتقاقات
(باستثناء الصوف) لا تقتضيها اللغة
ولا تستقيم، فالقول بأنه من الصفاء
غير صحيح لأن النسبة تكون صافي،

بهم في عمل أكاديمي خدمة للتصوف
الإسلامي وبياناً لأنوار الإسلام وفضل
سيدنا محمد S على الأمة ماضيا
وحاضرا ومستقبلا.

3 - مفهوم التصوف الإسلامي ومضامينه التربوية والروحية:

البحث في مفهوم التصوف له
منحيان منحى فيلولوجي (لغوي)
متعلق بأصل كلمة صوفي ومتصوف
وفي زمن ظهور المصطلح، والمنحى الآخر
متعلق بالدلالة الاصطلاحية للتصوف
الإسلامي كما وضعها أساطين
التصوّف³³، وإن كان الجانب الأول قد
أخذ حيّزا كبيرا من اهتمام الباحثين
خصوصا من المستشرقين الذين
حاولوا ردّ المصطلح إلى أصول أجنبية،
وهي رؤى تعكس الخلفية الأيدولوجية
لأصحاب هذا التيار محاولة منهم نفي
أي جدّة أو ابتكار أو عبقرية للحضارة
الإسلامية، وقد دافع ثلّة من العلماء

وهو ما اختاره عبد الواحد يحي فيما نقله عنه فضيلة الشيخ الأكبر عبد الحليم محمود في كتابه عن المدرسة الشاذلية: «أما أصل هذه الكلمة – صوفي-فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً، ووضعت فروض متعددة، وليس بعضها بأولى من بعض، وكلها غير مقبولة، إنها في الحقيقة تسمية رمزية. .»³⁷

وتأخذ هذه التحليلات اللغوية منحى، أحدهما تحليل الكلمة داخل المعجم اللغوي العربي وفيه تأكيد على أصالة التصوف الإسلامي واعتباره علماً أصيلاً في الحضارة الإسلامية وثانيهما اسقاط الكلمة على الثقافات الأجنبية والتراث الخارجي (هندوسية – بوذية – مسيحية- يونانية)، وهو رأي ذهب إليه أغلب المستشرقين، ومال إليه بعض علماء الإسلام كما نجد ذلك عند أبي الريحان البيروني

والقول بأنه من أهل الصفة فالنسبة تكون صُفِّي، والنسبة إلى الصفّ الأول غير صحيحة لأن النسبة إليها تكون صَفِّي، أما القول بأنها نسبة إلى رجل يسمى صوفة فقد رده الباحثون ومنهم علي سامي النشار قائلاً: «ولكن إذا كان الإسلام قد لحق ببني صوفة وعرف المؤرخون اسم شيخ هذا البطن الذي لحق به الإسلام فأين ذهب البطن بعد ذلك، هل تمرق بنو صوفة شذرمذروعفا عليهم التاريخ؟ ...»³⁵

وأمام هذا الإشكال ذهبت أغلب مصادر التصوف الأولى إلى أن الاشتقاق الأقرب الذي أخذت منه الكلمة هو الصوف، وإن كان القشيري يرى رأياً آخر يدفع به كل اعتراض عن هذه المسألة بقوله: «وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنه كاللقب. .»³⁶

ونجد الإمام القشيري - عمدة أهل
التصوف - يفسّر لنا هذا الشراء في
المعنى بعبارة دقيقة: «وتكلم الناس في
التصوّف ما معناه؟ وفي الصّوفي من
هو؟ فكلُّ عبّر بما وقع له...»⁴⁰.

وفي قوله: [فكلُّ عبّر بما وقع له]
إشارة دقيقة إلى الحقيقة الدّوقية
للتصوف الإسلامي، هذه الحقيقة
لا تعني أن الصوفية أرباب أحوال
فقط إنما كانوا أرباب أعمال، وهو ما
أشار إليه أبو حامد الغزالي في تجربته
الرّوحية مؤكداً أن الصوفي هو الوارث
الحقيقي لمشكاة النبوة بقوله: «... إنَّ
جميعَ حركاتهم وسكناتهم في ظاهريهم
وباطنيهم مقتبسةٌ من نورِ مشكاةِ النّبوةِ
وليس وراء نورِ النّبوةِ على وجه الأرض
نورٌ يُستضاء به»⁴¹.

وهو ما أكده الطوسي من قبل في
كتابه اللمع وجوابه عن سؤال متعلق
بعد تخصيص الصوفية بعلم أو حال

في كتابه عن الهنود، ومحاولته إيجاد
النقاط المشتركة بين حكماء الهند
وصوفية المسلمين³⁸.

ب/ اصطلاحا:

توطئة: إن الوقوف على معنى
التصوف من الناحية الاصطلاحية
دخول في عمق التجربة الصوفية،
إذ قصارى ما انتهت إليه مختلف
التعريفات هو التعبير عمّا اختلج في
الصدر، مما كابده وشاهده من سلك
طريق الحق عز وجل ولاحت عليه منه
الأنوار، من هذا المنطلق يمكن تفسير
ذلك التعدد والتنوع في التعاريف
الاصطلاحية للتصوف الإسلامي، لذا
يشير الشيخ زروق الفاسي في قواعده
إلى هذا الأمر بقوله:

«وقد حُدَّ التّصوّف ورسم وفسّر
بوجوه تبلغُ الألفين مرجعها كلّها
لصدق التّوجّه إلى الله تعالى، وإنّما هي
وجوه فيه والله أعلم»³⁹.

كما جرت العادة في مختلف العلوم وقول الطوسي أنهم معدن جميع العلوم، ومحلّ جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة...»⁴².

وهذه الوراثة التي تكلم عنها الغزالي والعلوم التي أشار إليها الطوسي هي وراثة لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ الْقَلَمُ ٤/٥٠﴾، فلعلّ بعض التعاريف الاصطلاحية تُسعفنا في الوقوف على هذه الحقيقة، لذا ستكون التعاريف التي نتوقّف عندها ما يصبّ في هذه الحقيقة ويخدمها.

1 - محمد بن علي القصّاب⁴³:
عرّف التّصوّف بقوله: التّصوّف أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام⁴⁴

وفي هذا التعريف بيان لمصدر الأخلاق ومنبعها وهو الرجل الكريم سيد البشر محمد S ، والزمان الكريم هو عصر النبوة والرسالة، والقوم

الكرام هم الصحابة -رضي الله عنهم-، وفي هذا التعريف تأكيد على استمداد أهل التّصوف من مشكاة ونور النبوة، لذا كان الصوفية الوارثين الحقيقيين لأحواله وأخلاقه، لذا نجد القرآن الكريم يقرّ بمكانة هذا الرجل الكريم وصحبه في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَتَذَكَّرُونَ فَضُلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزُعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لَيْغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ الفتح/29.
وجاء في تفسيرها: "وهذا الوصف الذي مدّح الله به الصحابة -رضي الله عنهم- مطلوبٌ من جميع المؤمنين..."⁴⁵.

2- الجنيد⁴⁶:

إن هذه التعاريف التي حدّ بها الإمام الجنيد التصوّف تحمل مضامين أخلاقية تربوية، فالتعريف الأول جمع فيه بين تصفية الباطن التي تُثمر تغيير الصفات الطبيعية وهي قوى النفس الغضبية والشهوانية، وإخماد الصفات البشرية بإطفاء نار شهوتها وإسكات صوتها، والتخلق والتحلي بمكارم الأخلاق، مع استصحاب مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما يدلّ عليه مصطلح النصّح لجميع الأمة، وبهذا يخرج التصوف من كونه عزلة وانفرادا وتقوُّعا، وفيه ردّ على الرّؤى التي تجعل من التصوّف طقوساً ورسوماً لا علاقة لها بالفعل الاجتماعي والسياسي، أما في قوله الوفاء لله على الحقيقة، واتباع رسول الله في الشريعة دعوة إلى الالتزام بأحكام الشريعة أمراً ونهياً والمستمدّة من نور الوحي كتاباً وسنة، وهو ما أكد عليه الجنيد بقوله: "أنّ هذا العلم مقيّد بالكتاب والسنة

49

ذكرت مصادر التصوّف أقوالاً عدّة لسيد الطائفة الإمام الجنيد، منها قوله وقد سئل عن التصوّف ما هو فقال هو: "تصفية القلب عن موافقة البريّة ومفارقة الأخلاق الطبيعيّة وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلّق بالعلوم الحقيقيّة واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع رسول الله S في الشريعة"⁴⁷.

ومن أقواله أيضاً في حديثه عن الصوفي الحقيقي وصفاته وأخلاقه فقد مثله بالأرض التي يُطرح عليها كلّ قبيح ولا يخرج منها إلا كلّ مליح، أو كالأرض يطؤها البرّ والفاجر، وكالسحاب يُظلّ كلّ شيء وكالمطر يَسقي كلّ شيء⁴⁸.

تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ
بِالْأَبْصَارِ﴾ النور /43.

وجاء في لسان العرب: "وسنا البرق
ضوءه، يُكْتَبُ بِالْألف وَيُنْتَى سَنَوَان
وَلَمْ يَعْرِفِ الْأَصْمَعِيُّ لَهُ فِعْلاً. والسَّنا،
بِالْقَصْرِ: الضَّوُّ " ⁵⁵. ومنه فالخلق
الحسن كالنور لصاحبه يضيء حياته
وطريقه.

وأما قول الجريري مراقبة الأحوال
فدعوة إلى مراقبة الأفعال والحركات
والخواطر بالرجوع إلى مقتضى الشرع
والالتزام به، دون التعويل على ما
ينقدح في نفس السالك، وقوله لزوم
الأدب دعوة إلى عدم الخروج على
حدود الشريعة، فالسالك يبدأ بالأدب
وينتهي طريقه بلزوم الأدب أيضا.

4 - حمدون القصار ⁵⁶: دعا

حمدون القصار في وصيته إلى صُحبة
الصّوفية وعلل ذلك بقوله: " إن لهم
للقيبج وجوها من المعاذير ⁵⁷، وهذا

ومما يلاحظ أيضا من خلال تلك
الأوصاف التي قدّمها الجنيد عن
الصوفي (الأرض - السحاب - المطر)
فهو توظيف وتوصيف جميل، إذ أن
اجتماع هذه الأوصاف أو المقدمات
طريق للحياة المتجلية في الزرع
والنبات والعمران والخير الوفير، وهذا
حال الصوفي نفاع لغيره وأمته ووطنه
يبني ولا يهدم، وفي هذا يقول الرسول
S «الْمُؤْمِنُ كَالْغَيْثِ» ⁵⁰، وقوله S :
«خير الناس أنفعهم للناس» ⁵¹

3 - أبو محمد الجريري ⁵²:

عرّف الجريري التصوّف بقوله: "
التصوّف الدخول في كل خلق سني
والخروج من كل خلق دني" ⁵³
وعرّفه أيضا بقوله: " التصوف
مراقبة الأحوال ولزوم الأدب " ⁵⁴.

تضمن التعريفان السابقان
الدعوة إلى مكارم الأخلاق، فالخلق
السني، والسني المضيء ومنه قوله

تعالى في قصة الخضر وموسى - عليهما السلام: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ الكهف/76، وجاء في تفسيرها: "أي: قد أعذرت ووجدت من قبلي عذراً في مفارقتي، حيث خالفتك ثلاث مرات"⁵⁹.

5- المرتعش⁶⁰: قال عن التصوف أنه حُسن الخلق⁶¹

وقد شرح الإمام الطوسي هذا القول وبين درجاته وأقسامه، وأعلها مع الحق بأداء أوامره بلا رياء، وثانها مع الخلق بحفظ حرمة الكبار، والشفقة على الصغار، وانصاف الأقران، والإعراض عن الكل، والثالث مع النفس بعدم متابعة الهوى والشيطان⁶²، وقد جاء في الوحي ما يؤيد هذا المعنى في أكثر من موضع، منها مدح الله لنبيه S بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم/04، ومن السنة قوله S «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَحَاسِنَ

الوصف منبئ بالفضائل والقيم التي تحقق بها أهل التصوف، ولا يُوجد خلق أرفع من التماس العذر للصحب والإخوان عند الخطأ والزلات، واستصحاب هذا الخلق ينبئ عن حسن الظن وسلامة الطوية وبُعد صاحبها عن التهمة، وقد عقد الإمام أبو حامد الغزالي في إحيائه مبحثاً دعا من خلاله إلى استصحاب مسلك العذر فقال: "فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشرفمهما رأيت إنساناً يسيء الظن بالناس طالباً للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه وإنما رأى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق..."⁵⁸.

وقد ذكر هذا الخلق في القرآن الكريم والسنة النبوية، منها قوله

6- أبو سعيد بن أبي الخير⁶⁵:

يُعتبر سعيد بن أبي الخير الميمني مؤسس نظام الزوايا والخانقاه في العالم الإسلامي، وقد كرّس حياته لتربية المريدين وإرساء القيم والأخلاق والفضائل في نيسابور في القرن الخامس الهجري، فقد أعطى للتصوف معنى تربويا ذا أبعاد اجتماعية، فقد أجاب حين سئل يوما عمّن يسير في الماء ويطير في الهواء فردّ على هذه الدعوى بقوله أن بعض الحيوانات تسير على الماء وبعضها يطير فهذه الأشياء لا قيمة لها، والرجل الجدير بهذا الاسم- صوفي- هو الذي يعيش مع الناس ويتعامل معهم ويختلط بهم ولا يغفل لحظة واحدة عن الله⁶⁶.

بل قدم أبو سعيد بن أبي الخير طرحا ورؤية جديدة للتصوف الإسلامي حين جعل حقيقته التقرب إلى الحقّ بخدمة الخلق، وفي هذا يقول:

«الأخلاق»⁶³، وفيه أيضا عن مسروق «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا»⁶⁴.

وعليه كانت الأخلاق هي محور التصوف الإسلامي، وما الرسوم والأشكال إلا مظاهر وقشور، فجوهر الطريق الصوفي هو التحلية بمكارم الأخلاق والتخلية من الرذائل والآفات، ومداواة النفوس بإصلاح ما كمن فيها من أمراض وعلل وحملها على مقتضى الأمر والنهي، وهذا ما شرحه حديث جبريل السابق في بيان دوائر ومجالات الإسلام الثلاث (عقائد- شرائع- أخلاق)، لذا وقع الكثير في الوهم والخطأ حين اعتبروا التصوف أمرا زائدا يُمكن الاستغناء عنه، ولم يفرقوا بين الانتماء للطريقة، والالتزام بالآداب والأخلاق وظنوا التصوف شيئا يمكن الاستغناء عنه.

من أقطاب التصوف في القرن السادس الهجري، جعل حياته وقفا لهداية الخلق إلى طريق الحق بمنهج التربية والتزكية، والقارئ لسيرة الرجل ومبادئ الطريقة القادرية يلمس الدرس الأخلاقي في خطاب الشيخ الجيلاني من خلال مؤلفاته، وقد كان التصوف في رؤيته مبنيا على الصدق والصفاء والزهد وترك الشهوات، لذا يتوجّه بنقد لاذع لمتصوفة عصره الذين جعلوا التصوف خرقا ورسوما، ففي كتابه الفتح الرباني في المجلس الخامس والعشرين (25) يقول: " التصوف مشتق من الصفاء، يا من لبس الصوف الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سوى مولاه وهذا شيء لا يجيء بتغيير الخرق وتصفير الوجوه وجمع الأكتاف ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، إنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل والزهد في الدنيا

... وليس هناك طريق أقرب وأفضل وأسرع من العمل على راحة شخص، وقد سرت في هذا الطريق وإني أوصي الجميع به»⁶⁷.

وقد أثّرت طريقة أبي سعيد بن أبي الخير فيمن حوله، حتى الطوائف الدينية من يهود ونصارى كانوا يحضرون مجلسه ويستمعون إلى دروسه ومواعظه وأسلم الكثير على يديه، وكانوا يكنون له احتراما كبيرا ويقبلون يديه⁶⁸.

وهذا المسلك مستمد من مشكاة النبوة وسيرة خاتم الأنبياء محمد S ومعاملته لأهل الذمة في المدينة المنورة وكيف جعل لهم حقوقا مدنية واعترف لهم بحق المواطنة، بل تذهب كتب السنة إلى أنه S «اَشْتَرَى مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا بِنَسِيئَةٍ، وَرَهْنَهُ دِرْعَهُ»⁶⁹

7- عبد القادر الجيلاني:

يُعتبر الشيخ عبد القادر الجيلاني

مَنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٢﴾
الجمعة/02.

فالتزكية مشروع وهدف رباني
ونبوي وجزء لا يتجزأ من الرسالة
المحمدية

2 - ابتناء التصوف الإسلامي
واستمداد أصوله من القرآن والسنة
وأحوال النبي S ، وهو ما أقره الشيخ
زروق الفاسي في قواعده، في القاعدة
الرابعة (04) [صدق التوجه مشروط
بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى
وبما يرضاه ولا يصح شرط بدون
مشروطه ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ
الْكُفْرَ﴾ الزمر/07، فلزم تحقيق
الإيمان ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ
لَكُمْ﴾ الزمر/07، فلزم العمل
بالإسلام، فلا تصوّف إلا بفقه، إذ لا
تُعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا
فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق
وتوجه...][⁷².

وإخراج الخلق من القلب وتجرده عما
سوى مولاه عزوجل "⁷¹.

4 - التصوّف الإسلامي من
سلام الباطن إلى سلامة العوالم
الخارجية - قراءة في الثمرات -

تأكيدا للمعاني السابقة التي
تناولناها في ثنايا هذه الورقة حول
مفهوم التصوف ومجاله وحقيقته،
تتضح لنا بعض المعالم البارزة في
الدرس الصوفي، والتي تشكّل أرضية
وقاعدة للجانب الروحي والأخلاقي في
الإسلام، ومما يمكن أن يُستفاد من
الدرس الصوفي ما يلي:

1 - البعد التربوي للدرس الصوفي
تقرير لما ورد في نصوص الوحيين -
الكتاب والسنة-، وهو ما أقرته الآيات
القرآنية، من ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ
الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ
رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا

بوعمامة، والمقراني والحداد وفاطمة
لا لا نسومر وغيرهم كثير.

4 - تلازم صلاح الظاهر والباطن
وتوقف الأول على الثاني، وهو ما بينه
حديث النبي « **أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ
مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ
كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ
كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ** »⁷⁴.

وعلى هذا الأساس يُمكن أن يُساهم
التصوّف في الحدّ من الجرائم والآفات
الاجتماعية، فمن معاني التصوّف
الصفاء، وصفاء الباطن مُثمر لصفاء
الظاهر وسلامته، فمادام التصوف
التزام بأحكام الشريعة والوقوف على
مقتضى الأمر والنهي كان الصوفي
من هذا الباب وقّافاً عند حدود الله
ومحارمه، وهذا كلّهُ مُثمر لتفعيل
المقاصد في أرض الواقع (حفظ
الدين-حفظ العقل-حفظ النفس-
حفظ المال-حفظ العرض)، وهذه

وعلى ضوء هذه القاعدة
تتضح ضرورة التصوف في الدين
كضرورة الفقه للمعاملات والعقائد
للاعتقادات.

3 - ثمرة التصوّف إصلاح القلوب
وسيرها إلى علام الغيوب، وهو ما بينه
الشيخ زروق الفاسي في قواعده في
القاعدة 13، إذ يقول [فائدة الشيء ما
قُصد له وجوده، وإفادته حقيقته في
ابتدائه أو انتهائه أوفيهما، كالتصوف
علم قُصد لإصلاح القلوب، وإفرادها
لله عما سوى الله...]⁷³.

ويُمكن أن نلمس ثمار التصوف في
تلك الأجيال الربانية التي تخرّجت من
الزوايا، وتربّت على أيدي رجال ربانيين
عاملين، استطاعوا أن يوقظوا همما،
فجمعوا بين السيف والقلم والسبحة،
ولا أدل على ذلك من أعلام الإصلاح
والدعوة في الجزائر أمثال الأمير عبد
القادر الجزائري وابن باديس والشيخ

فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ
إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ
النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ آل
عمران/103.

ومن السنة قوله S: «لَا تَحَاسَدُوا،
وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا
عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»⁷⁶

والتصوف الإسلامي مُشتق من
الصفاء، لذا سعى أهل التصوف
للتحقق بأمر رسول الله S «لَا يُؤْمِنُ
أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِإِخِيهِ مَا يُحِبُّ
لِنَفْسِهِ»⁷⁷

وهذا المعنى عبّر عنه أبو الفتح
البستي شعراً في قوله:

تنازع النَّاسُ فِي الصَّوْفِي وَاخْتَلَفُوا

قدما وظنّوه مشتقاً من الصّوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافي
فصوفي حتى لقّب الصوفي

المقاصد الضرورية هي أساس الدين
والدنيا: «فَأَمَّا الضَّرُورِيَّةُ، فَمَعْنَاهَا
أَنَّهَا لَا بَدَّ مِنْهَا فِي قِيَامِ مَصَالِحِ الدِّينِ
وَالدُّنْيَا بَحِيثٌ إِذَا فَقِدَتْ لَمْ تَجِرِ
مَصَالِحُ الدُّنْيَا عَلَى اسْتِقَامَةٍ، بَلْ عَلَى
فَسَادٍ وَتَهَارُجٍ وَفَوْتِ حَيَاةٍ، وَفِي الْأُخْرَى
فَوْتُ النِّجَاةِ وَالنَّعِيمِ، وَالرُّجُوعُ
بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ»⁷⁵.

وعليه سلامة الباطن مُحَقَّقة
لسلامة العوالم الأخرى، وهو ما
صرّح به الله تعالى في القرآن الكريم
في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ
مُهْتَدُونَ﴾ الأنعام/82.

5- أخوة أفراد المجتمع، فيمكن أن
نستلهم من التصوف الإسلامي هذا
البعد الاجتماعي المستفاد من نصوص
الوحي الشريف، من ذلك قوله تعالى:
﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً



خاتمة:

بعد هذه الجولة في موضوع المضامين التربوية الروحية للتصوف الإسلامي قراءة تحليلية للدلالات الاصطلاحية للتصوف الإسلامي، نأمل أن تكون هذه الورقة قد أجابت عن الإشكالية المحورية والسؤال المركزي المتعلق بالبعد التربوي والقيمي لمشروع روحي أسسه أساطين التصوف الإسلامي من أجل بناء الإنسان تحلية بالفضائل وتخلية من الرذائل، ففيما عرضناه ردّ على تلك الرؤى التي رسم أصحابها صورة قاتمة عن التصوّف الإسلامي ناسين أو متناسين تلك السياقات المعرفية والسياسية التي نشأ فيها التصوف الإسلامي وتطوّر عبر الزمن، وفيه ردّ أيضا على مدّعي التصوف الذين حولوه إلى رسوم وطقوس وأشكال ونزعوا منه مضامينه التربوية فأضحى خرقه

بعد أن كان خرقه وألما، وفيه تأكيد من جهة أخرى أن أرباب التصوف والمؤسسين الأوائل جمعوا بين السيف والقلم والعلم والعمل، ونأمل أن تكون هذه الورقة لبنة نحاول من خلالها أن نزرع الأمل في النفوس، ونعيد القلوب العقول الحائرة إلى رياض اليقين المتثّل في نور الوحي ونلين القلوب القاسية التي أغرتها المادّة وعصفت بها موجة المدنية، هذا كلّه من أجل مواطن صالح مُصلح فعّال يحمل قادوم العمل وسُبحة التصوف ورحم الله الحاج علي التماسيني التيجاني الذي جعل شعاره [السبيحة والمسيحة واللويحة حتى تطلع الرويحة]

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله
الطيبين الطاهرين

الهوامش:

210 بتصرف.

6 - انظر: كتاب فيه ما فيه، جلال الدين الرومي، ترجمة عيسى علي العاكوب، دار الفكر دمشق + دار الفكر، بيروت لبنان، ط 01، 2002، ص 99 وما بعدها بتصرف.

7 - حظه من الألوهية إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ الحجر / 29. ، وهذا ينتفي وهم تأليه الإنسان.

8 - إنشاء الدوائر، محي الدين بن عربي، مطبوع مع عقلة المستوفز + التدييرات الإلهية، ط مدينة ليدن، مطبعة بريل، سنة 1336هـ، ص 21.

9 - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ج 07، ص 309.

10 - كبرى اليقينيّات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر،

1 - انظر: الإنسان ذلك المجهول، الكسيس كاريل، ترجمة: شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، ط 1993، ص 16 وما بعدها بتصرف.

2 - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر حسن عباس زكي - القاهرة، ط 1419، ج 03، ص 87.

3 - أخرجه البخاري عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، كتاب الإيمان، باب فَضْلِ مَنْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، رقم: 52

4 - انظر: معارج القدس في مدارج معرفة النفس دار الآفاق الجديدة - بيروت، ط 02، 1975، ص 16.

5 - انظر: ميزان العمل، أبو حامد الغزالي، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ط 01، 1964، ص

- بيروت لبنان+ دار الفكر، دمشق، ص 247 وما بعدها.
- 11 - تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، ابن سينا، دار العرب للبستاني، القاهرة، ط02، بدون تاريخ، ص 64 وما بعدها.
- 12 - اللّمع، أبو نصر السّراج الطّوسي، تح: عبد الحليم محمود + طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر+ مكتبة المثنى ببغداد، ط 1960، ص 23.
- 13- مقدّمة ابن خلدون، ابن خلدون، تح: عبد الله محمّد الدّويش، دارالبليخي+ مكتبة الهداية، دمشق، ط 01، 2004، ج 02، ص 225.
- 14 -الكشف: " بيان ما يُستتر على الفهم فيُكشف عنه للعبد كأَنّه رأي عين" انظر: موسوعة مصطلحات التّصوّف الإسلامي، رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 01، 1999 م. مادة كشف، ص 790.
- 15 - المنقذ من الضّلال والموصل إلى ذي العزّة والجلال، أبو حامد الغزالي، قدم له: علي ملحم، دارومكتبة الهلال، ط 1، 1993، ص 05.
- 16 - انظر: مدخل إلى التصوف، ، ص 12 بتصرف.
- 17 - أخرج البخاري عن أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي S عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم: 50.
- 18 - قواعد التصوف، ص، 23.
- 19 - انظر: باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين، محمد سعيد رمضان البوطي
- 20 - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، ط 1984، ج 28، ص 209.
- 21 - أخرج مالك في الموطأ بلاغا

27 - ركائز الإيمان بين العقل والقلب، محمد الغزالي، دار الشروق، بدون تاريخ، ص 97.

28 - المرجع نفسه، ص 108.

29 - قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، ط 1991، ج 02، ص 212.

30 - التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، زكي مبارك، ط 2012، ص 27-28.

31 - انظر: ربانية لا رهبانية، أبو الحسن الندوي، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص 08 وما بعدها بتصرف.

32 - انظر: تاريخ الفلسفة الإسلامية، هنري كوربان، ترجمة: نصير مروة+حسن قبيسي، عويدات للنشر، بيروت، لبنان، ط 02، 1998، ص 283 بتصرف.

عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال ابن عبد البر: هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعا، منها ما أخرجه أحمد في مسنده، والخرائطي في أول المكارم.

22 - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، دار إحياء التراث العربي بيروت ط 02، 1992، ج 01، ص 157-158.

23 - البحر المديد، ج 07، ص 309.

24 - المحاور الخمسة في القرآن الكريم، محمد الغزالي، دار الشروق، بدون تاريخ، ص 167.

25 - انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط 01، 1987، ص 09 بتصرف.

26 - الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 03، 2005، ص 18.

39 - قواعد التصوف، زروق
الفاسي، تح: عبد المجيد خيالي، دار
الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط02،
2005، ص 21.

40 - الرسالة القشيرية، ص 312.
41 - المنقذ من الضلال والموصل إلى
ذي العزة والجلال، أبو حامد الغزالي،
قدم له: علي ملحم، دار ومكتبة الهلال،
ط1، 1993، ص 05.

42 - انظر: اللمع للطوسي، مصدر
سابق، ص 40 بتصرف.

43 - من أهل الطبقة الثانية
صحب شيخ الطائفة الإمام الجنيد،
كان الجنيد يقول: "وكان الجنيد يقول
" الناس ينسبونني إلي سري، وإنما
أستاذي هذا يعني القصاب " انظر:
طبقات الصوفية، السلمي، تحقيق:
مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب
العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1998،
ص 129. وانظر: طبقات الأولياء، ابن

33 - انظر: التصوف الثورية
الروحية في الإسلام، أبو العلا عفيفي،
دار الشعب للطباعة والنشر، بيروت،
بدون تاريخ، ص 27.

34 - انظر: التصوف الثورية
الروحية، مرجع سابق، ص 27
بتصرف.

35 - نشأة الفكر الفلسفي في
الإسلام، علي سامي النشار، ط دار
المعارف، مصر، بدون تاريخ، ج03،
ص 41.

36 - الرسالة القشيرية، ص 312.

37 - نقلا عن عبد الحليم محمود،
قضية التصوف، المدرسة الشاذلية،
دار المعارف، مصر، ط03، بدون
تاريخ، ص 350.

38 - تحقيق ما للهند من مقولة
مقبولة في العقل أومردولة، أبو الريحان
البيروني، عالم الكتب، بيروت، ط02،
1403، ص 27.

- الملقّن، تحقيق: نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 02، 1994، ص 136.
- 48 - انظر هذه الصفات في: الرسالة القشيرية، ص 313 بتصرف.
- 49 - أنظر في ذلك: التّعرف لمذهب أهل التّصوّف، ص 19.
- 44 - انظر: اللمع في التّصوف، ص 45.
- 45 - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ج 05، ص 408.
- 46 - الجُنَيْد بن مُحَمَّد أَبُو الْقَاسِم الخزاز، يُقَال لَهُ القواريري أصله من نهاوند ومولده ومنشؤه بالعراق صَحَب السّري السّقْطِي والحارث المحاسبي وَمُحَمَّد بن القصاب البَغْدَادِيّ وَغَيْرَهُمْ وَهُوَ من أئِمّة القَوْم وسادتهم مَقْبُول على جَمِيع الألسنة توفّي سنة سبع وَتَسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ. انظر: طبقات الصوفية، السلمي، ص 129.
- 47 - التّعرف لمذهب أهل التّصوّف، الكلاباذي، تصحيح: آرثر جون آبري، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ، ص 09.
- 50 - أورده ابن الصّلاح في فتاويه ولم يجزم بصحّته، فتاوى ابن الصّلاح، تح: موقّق عبد الله، مكتبة العلوم والحكم، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط 01، 1407، ج 01 / 162.
- 51 - رواه القضاعي عن جابر. انظر: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، العجلوني، مكتبة القدسي، ط 1351، ص 393.
- 52 - من كبار أصحاب الجنيد صاحب سهيل التستري، جلس مكان الجنيد بعد وفاته، مات سنة 311هـ، انظر: الرسالة القشيرية، ص 63.
- 53 - اللمع، الطوسي، ص 45.

61 -انظر: كشف المحجوب،
ص236.
62 -انظر: كشف المحجوب، ص
237 - 238 بتصرف.

63 -رواه أحمد والبيهقي والحاكم
وصححه من حديث أبي هريرة.
64 - أخرج البخاري عن مسروق،
كتاب الأدب، بَابُ حُسْنِ الْخُلُقِ
وَالسَّخَاءِ، وَمَا يُكْرَهُ مِنَ الْبُخْلِ، رقم:
6035.

65 -فضل الله بن أحمد بن علي
الميمى، الزاهد العالم، أبو سعيد بن أبي
الخير، صاحب الأحوال والكرامات،
مات سنة أربعين وأربعمئة ببلده.
انظر: طبقات الأولياء، ص 272.

66 -انظر: أسرار التوحيد في
مقامات أبي سعيد، محمد بن المنور،
ترجمة: اسعاد عبد الهادي قنديل،
الدار المصرية للتأليف والترجمة، بدون
تاريخ، ص 228 بتصرف.

54 -الرسالة القشيرية، ص 314.
55 -لسان العرب، ابن منظور، دار
صادر، بيروت، ط 1414، ج 14، ص
403.

56 -أبو صالح حمدون بن احمد
بن عمارة القصار منه انتشر مذهب
الملاطية بنيسابور، مات سنة 271هـ.
انظر: الرسالة القشيرية، ص 49.

57 -الرسالة القشيرية، ص 313.
58 -إحياء علوم الدين، أبو حامد
الغزالي، دار المعرفة - بيروت، بدون
تاريخ، ج 03، ص 36.

59 -البحر المديد، ج 03، ص 293.
60 -أَبُو مُحَمَّدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ
المرتعى نيسابوري من محلة الحيرة
وقيل: من ملقباذ صاحب أبا حفص وأبا
عُثْمَانَ ولقي الجنيد وَكَانَ كبير الشأن،
مَات ببغداد سنة ثمان وعشرين وثلاث
مائة. انظر: الرسالة القشيرية، ص 71
- 72.

75- الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط01، 1997، ج02، ص 17-18

76- أخرجه مسلم عن أنس، كتاب البر والصلة والآداب، باب بَابُ النَّهْيِ عَنِ التَّحَاسُدِ وَالتَّبَاغُضِ وَالتَّدَابُرِ، رقم: 2559.

77- أخرجه البخاري عن أنس، كتاب الإيمان، باب بَابُ: مِنَ الْإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، رقم: 13.

67- المرجع نفسه، ص 226 227-.

68 -انظر: المرجع نفسه، ص 155 وما بعدها بتصرف.

69- أخرجه البخاري عن عائشة، كتاب البيوع، بَابُ شِرَاءِ الْإِمَامِ الْحَوَائِجِ بِنَفْسِهِ، رقم: 2096.

70- عبد القادر بن أبي صالح الجيلي، قطب العارفين. ولد سنة سبعين وأربعمائة، ومات سنة إحدى وتسعين وخمسمائة. انظر: طبقات الأولياء، ص 246.

71- الفتح الرباني والفيض الرحمانى، عبد القادر الجيلاني، دار الريان للتراث، بدون تاريخ، ص 115.

72- قواعد التصوف، ص 22.

73- المصدر نفسه، ص 26.

74- أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير كتاب الإيمان، باب بَابُ فَضْلِ مَنْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، رقم: 52